



رسائل الثورة السورية المباركة (64): الجيش الحر.. نافذة الأمل، وخط الثورة الأحمر

أعترف ابتداءً بأنني أقحمت هذه المقالة في سياق "مقالات الحرب" بلا سابق تخطيط، فقد كنت منهمكاً بكتابة مقالة عن "المناطق الآمنة" حينما قرأت خبراً موجزاً يقول: إن بعض رموز المعارضة - من المجلس الوطني ومن هيئة التنسيق - طلبوا من وزير الخارجية البريطاني أن يضغط على الأتراك من أجل وقف عمليات الجيش السوري الحر. فتركت ما كنت فيه وقررت كتابة هذه الكلمات.

تلاحظون أبي لم أذكر أي اسم لسبعين؛ أولهما: أبي لم أتوثق من صحة الخبر ولم أسمعه ممّن نقل عنهم مباشرة، ومن ثم فإنني **افتراض أنه خبر يتحمل النفي كما يتحمل الإثبات**، وثانيهما: أن تعليقي هو على الموضوع بغض النظر عمن يرتبط به من أشخاص وأسماء.

إذا صحّ هذا الخبر فإنه جريمة في حق الثورة لأنّه يحرّمها من أهم أدلة امتلاكها حتى الان -بفضل الله-، وباختصار بكلمات قليلة أقول: **إن الجيش الحر هو الخط الأحمر الذي لن تقبل الثورة أن يقترب منه أحد، وإن الكيان الذي لن يفرط فيه الثوار ولن يتخلّوا عنه -بإذن الله-**، لأنّ أهم ما يملكونه وأعظم ثمرات جهادهم السلمي حتى اليوم.

إن جيّشنا الحر هو أقوى ضمان لعدم عسكرة الثورة، وهو أقوى ضمان لعدم سحق الثورة أو توقفها، وهو أهم ضمان لعدم السقوط في هاوية الحرب الأهلية، وأهم ضمان ضد التدخل الأجنبي، وهو الأمل الأخير -بعد الله وقدرة الله- لانتصار الثورة لو أخفقت كل الضغوط الشعبية السلمية في إسقاط النظام. هذا هو الموجز، فمن اكتفى به فلا يقرأً ما بقي من المقالة، ومن أحب التفصيل فيها هي التفاصيل:

أنا من أشد المدافعين عن سلمية ثورتنا العظيمة كما تعلمون، وقد بذلت كل ما أملك من جهد وطاقة خلال الشهور الماضية **لتحذير من عسكرة الثورة**، ولكنني إنسان أملك بين أضلاعي قلباً يحس ويتألم، بل أزيدكم أنني أكثر حساسية من أمثالى من الرجال وأنني يمكن أن أبكي من قراءة قصة خيالية محزنة، فما بالكم بالقصص الحقيقة التي أقرأها تفصيلاتها وأشاهد صورها كل يوم؟ هل تدركون أيّ جهد كنت أبذل له لأقناع نفسي وأحاول إقناع غيري بأنّ لا نخرج إلى الشوارع بما تيسر من سلاح، بل حتى بسكاكين المطابخ، لنحوّل الثورة السلمية إلى ثورة مسلحة؟ لكنني كنت أتصور أي ثمن فادر سيدفعه شعبنا الأعزل فألمّ نفسي وأردّ قلمي إلى جرابه، وأعود فأكرر المعزوفة التي ملّها مني الناس: لا تسلحوا الثورة (أي لا تجعلوا السلاح هو أداة التغيير بدلاً من الضغط السلمي)، لا تحملوا السلاح إلا دفاعاً عن النفس، لا تستعملوا السلاح -دفاعاً عن النفس- إلا إذا غلب على ظنك أن استعماله أقل ضرراً من عدم استعماله.

حتى لقد التقط أحد الإخوة المتحمسين - عفا الله عنه - الجملة الأخيرة وأسس عليها مقالة سخر فيها مني ومن "المفاضلة بين الأضرار و اختيار أخف الضرر عن الدفع عن النفس بالسلاح" ، ونشرها في الإنترنط طولاً وعرضأً، ثم دارت الأيام وأعلن الجيش الحر، وهو الجهة التي تحمل السلاح وتحترف القتال)، أعلن هذا المبدأ مرتين، حينما انسحب من الرستن أولأً، ثم من بابا عمرو ثانياً، ولم ينسحب جبناً ولا خوفاً من الموت، فإن **أبطال الجيش باعوا له أنفسهم وتحولوا إلى مشاريع شهداء من يوم انشقوا على جيش الاحتلال الأسد**، أرجو الله أن يصوّب نياتهم ويثبت قلوبهم ويُسدد رميهم. لا، إنهم لم ينسحبوا في المرتين جبناً أو ضناً بأنفسهم، بل انسحبوا لتجنيب المدنيين القتل والدمار وإنقاذهم من خسائر كبيرة كانوا سيصابون بها لو بقيت كتائب الجيش الحر في المدينة تدافع عنهم، فآخرًا الانسحاب على قاعدة اختيار أخف الضرر، وأعلنوا ذلك في بياناتهم المصورة التي ببرروا فيها سبب الانسحابين، بارك فيهم الله.

حسناً، لقد ثابتت على الدعوة إلى السلمية وقلبي ينزف ألمًا مما أشاهده من قتل واستباحة وتنكيل وتعذيب، وكنت أدعوا وأأمل أن ينجح الضغط السلمي أخيراً في إنهاء النظام وتفتيته، ولكن الشهور مضت والناس يعانون والنظام يقاوم، وأصدقكم القول إني كدت أستسلم وأسلم بأن السلمية لن تتحقق شيئاً في مئة سنة! ثم شاء الله أن يأتي بالحل من حيث لم نحسب، من الجيش الذي هو أقوى أجهزة الدولة، لا من مؤسسات الدولة المدنية الأضعف التي توقعنا تفتتها وأنهيارها أولأً. حينما كتبت عن الجيش منذ ستة أشهر ونيف - بعد الحملة على درعا - بلغ أقصى تفاؤلي أني توقعت تمرد بعض وحدات الجيش بسبب ما يشاهده جنودنا الأحرار من بطش الأجهزة الأمنية وظلمها وعدوانها على المدنيين، **وقلت: لعل حوادث التمرد الفردية أولأ ثم حوادث الانشقاق الجماعية تدفع النظام إلى الخوف منبقاء الجيش في خط المواجهة الأول فيسحبه** ويعيده إلى ثكناته، وبذلك يخف الضغط على المدن التي لن تكفي أعداد مجرمي عصابات الأمن لاحتلالها، فتعود إلى التظاهر والضغط على النظام. في الحقيقة لم يخطر بيالي أن يخرج الله من الجيش الأسد جيشاً حراً يحمل سلاحه وينظم صفوفه للدفاع عن الثورة وعن الشعب الأعزل. وما ضر أن يخطر بيالي أو لا يخطر؛ المهم أن هذا الجيش جاء هبةً من الله، ومنذ تشكلت كتائبه الأولى طرت به فرحاً ورأيتها نافذة الأمل في جدار الجمود المحبط، واعتبرت أن دعمه من أوجب الواجبات وأن مهماته من أهم المهام؛ فأما دعمه فمطلوب من كل من يستطيع الدعم، جماهيرياً ونفسياً برفع اسمه والترحيب به في المظاهرات، وعملياً بتأمين المأوى والفرار الآمن للجند المتشقين، وبالمال إن لزم المال، واجباً على من يملك المال في الداخل أو في الخارج.

هذه واجباتنا تجاه الجيش الحر وجنوده الأبطال، وغيرها مما يمكن أن يتطلبوه منا مما يحتاجون إليه ونستطيع تقديمه. أما واجبه تجاه الثورة فهو حمايتها والدفاع عن جمهورها الأعزل، فما دام الجمهور رفض أن يحمل السلاح، وما دامت حماية الشعب من **أخصّ خصوصيات الجيش**، وما دام هذا الجيش الحر هو جيشنا الوطني لا جيش لنا سواه - بعدما استولت عصابة الأسد على جيش البلاد الأصلي -، فلم يبق بدًّ من أن يقوم الجيش الحر بحماية البلاد والعباد، بحماية المظاهرات والدفاع عن الأحياء السكنية، وباستهداف مواقع العدو ومراكيزه الأمنية، وبملاحقة وقتل مجرمي الشبيحة والمخابرات الذين يقتلون الأبرياء.

عندما يقوم الجيش الحر بهذه الواجبات فإنه يحول دون عسکرة الثورة، ويحميها من التصفية والفناء، ويحمي البلاد من الحرب الأهلية، ويغلق الباب أمام التدخل العسكري الأجنبي المباشر، ويقود الثورة إلى النصر - بإذن الله -.

قد تقولون: وكيف يصنع ذلك كله؟ وهذا هو الجواب - وسامحوني على الإطالة -:

(1) **الجيش الحر ضمان ضد عسکرة الثورة:**

الضغط القطيع على المدنيين العزل من شأنه أن يصلهم إلى الانفجار، فإلى كم يمكن أن يصبر الناس على الاعتقال والتعذيب والقتل والخطف والاغتصاب والنهب والتخريب ولا يحملون السلاح ويبذؤون باستهداف مراكز ورموز النظام بدلاً

من الاقتصار على المظاهرات السلمية؟ أنا لو كنت محلهم إلى كم أصبر؟ إني لأعلم أن التسلیح سیزید المعاناة والقتل والتضحيات، لكن من المؤكد أن للصبر حدوداً، وأن دفع العاطفة قد يكون أقوى من لجم العقل، ومن ثم فلا بد أن أتخلى عن هداية العقل ذات يوم وأحمل سلاحي وأندفع به قاتلاً أو مقتولاً ول يكن ما يكون.

لكن هذه المشاعر الفوارة ستسكن وستهدأ الخواطر عندما يبدأ جيش حقيقى بالدفاع عن المدنيين العزل من ضحايا إجرام عصابات الأسد. إنه جيش وطني مخلص محترف، قد يكون صغيراً قليلاً ولكنه في كل يوم إلى زيادة وقوة - بحمد الله -، ولعله يفتح باب التطوع إذا سمحت الظروف عما قريب فيلتحق به كل من بلغت به الحماسة أن يحمل السلاح، **وفي الحالتين فإنه صمام أمان من عسکرة الثورة ذاتها:**

(أ) إما باستيعاب الراغبين بالانتقال من الجهاد السلمي إلى الجهاد العسكري، وكلاهما باباً جهاد مبارك مشروع - بإذن الله - .

(ب) وإما بتنفيسي غيظ المكلومين وتهدهئ خواطركم بحيث يحكمون المصلحة ويتخلون عن الاندفاع إلى تسلیح الثورة. الخبر الجيد هو أن الجيش الحر يؤكد هذا الاتجاه عملياً، فقد أعلن قادته وضباطه الكبار مراراً رفضهم عسکرة الثورة وتعهدهم بالدفاع عنها وعن المدنيين العزل، وآخر ما سمعته منهم بهذا الخصوص كان بعبارات واضحة لا تحتمل اللبس على لسان قائد الجيش الحر العقيد رياض الأسعد في لقائه مع قناة الجزيرة قبل يومين. وبدوره فإننيأشكر ضباط وجند جيشنا الحر الأبيّ الكريم على الأمرتين؛ على إصرارهم على عدم عسکرة الثورة ومقاومتهم لهذا الاتجاه أولاً، وثانياً على ما يبذلونه من جهد كبير ما يزال يتزايد يوماً بعد يوم في حماية المدن والمدنيين وفي استهداف وضرب أهداف نظام الاحتلال الأسدية من أشخاص ومنشآت، بارك الله فيهم ووفقهم إلى المزيد.

(2) الجيش الحر ضمان لبقاء الثورة واستمرارها:

ربما وصل اليأس بالثوار أن يتراجعوا ويتوقفوا مع شدة الحملة وقوتها، ذلك يوم لم يقف معهم أحد، أمّا وقد علموا أن ثمة من يدافعون عنهم وصاروا يسمعون عن عمليات تصيب عصابات النظام ويشاهدون ذلك بأعينهم؛ فإن اليأس صار أبعد عن قلوبهم التي أينع فيها الأمل، وازدادوا ثباتاً وإصراراً على الاستمرار في ثورتهم. من تتبع صفحات الجيش الحر - الصفحة الرئيسية والصفحات الفرعية لكتائب - سوف تدهشكم كثرة العمليات وانتشارها الواسع في جميع أنحاء سوريا، حتى في دمشق وحلب. هذه العمليات لا توفر حالياً الحماية الكاملة للثورة، بل ولا نصف الحماية المطلوبة ولا ربّها، ولكنها لم تتقصر قط من يوم بدأت - بفضل الله -، وكلما مر يوم جديد ازدادت قوّة وتأثيراً.

من أهم نتائج هذه العمليات أنها نقلت الخوف إلى الطرف الآخر، فقد عاش الثوار في خوف وقلق وعاش المجرمون في أمان مطلق حتى بدأ الجيش الحر بضربيهم، فاطمأن الثوار بعض الاطمئنان وانتقل قلقهم وخوفهم إلى مجرمي الشبيحة والمخابرات الذين يزيد خوفهم وقلقهم في كل يوم - بحمد الله -، وهذه من أعظم ثمرات عمليات الجيش الحر، وقد ساعدت على ترويع المجرمين ولجمهم وتخفيف شرّهم، حتى لو لم يتوقف المجرمون النظاميون - عناصر المخابرات - عن المشاركة في الحرب ضد الشعب؛ فإن المجرمين المتقطعين - من الشبيحة - بدؤوا ينسحبون من الحرب حينما وجدوا أن الكلفة أعلى من العائدات، وقد بدأت تتكددس ثلاجات المستشفيات الحكومية والعسكرية بمئات من جثث أولئك القتلة دون أن يجرؤ النظام على إعلان قتلهم وتسلیمهم إلى أهاليهم، وفي بعض الحالات قيل إن ضباط التجنيد الذين يجوبون القرى العلوية لتجنيد متطوعين جدد قد قوبلوا بعنف وطردوا طرداً مُهيناً من بعض القرى بسبب استفحال القتل في شبان القرية الذين سبق تجنيدهم.

(3) الجيش الحر ضمان ضد الحرب الأهلية:

اسمووا لي أولاً أن أعلق على ما رددته جهات عدة مؤخراً عن خطر الحرب الأهلية في سوريا، بما فيها أصوات من داخل المجلس الوطني. اطمئنوا يا أيها السادة، بإذن الله لن تنزلق سوريا اليوم في هاوية الحرب الأهلية بعدما صمدت دونها مئتي يوم. نعم، النظام تمنى وحاول وبذل غاية الجهد لدفع البلد إلى الحرب الأهلية، ولكنه فشل حتى اليوم فشلاً ذريعاً وسوف يستمر فشله -بإذن الله-. لكن دعونا نعرف المصطلح: هل الحرب التي توشك أن تبدأ بين جيش سوريا الحر وجيش الاحتلال الأسدية هي حرب أهلية؟ بتعريفي الخاص ليست كذلك، بل هي حرب تحرير. ربما عدت إلى هذا الموضوع في مقالة لاحقة -إن شاء الله-. أما الآن فيكفي أن أقول إن الحرب الأهلية المقصودة هي الحرب بين فئات أهلية بينها نوع من التناقض، مناطق أو قبائل أو طوائف، وليس بين جيش الاحتلال وجيش حماية وتحرير.

في حالة وجود قوة واحدة، وهي قوة النظام، فإن تجيش مجموعات طائفة وحاذدة من الطائفة ودفعها إلى مهاجمة السنة في مدنهم وقراهم لن يكون أمراً صعباً، أو أنه ليس مستبعداً على الأقل، لكن هذه المهمة ستصبح صعبة جداً مع وجود قوة حماية نظامية من شأنها أن تتصدى للعصابات الطائفية وتقضى عليها، وسوف تُحبط -بذلك- مخططات النظام الخبيثة للدفع إلى الحرب الأهلية الطائفية.

(4) الجيش الحر ضمان ضد التدخل الأجنبي:

لم نعرف بعد تفصيلات الحملة المتوقعة على سوريا لإسقاط نظام الأسد المجرم، لكن يبدو أن الحظر الجوي والمنطقة الآمنة والضربات الجوية ستكون من مركبات الحملة الرئيسية، بغضّ النظر عن تفصيلاتها وطرق تنفيذها التي سأناقشها في مقالات لاحقة -بإذن الله-. مهما يكن الأمر فإن الحرب لا يمكن حسمها إلا على الأرض، هذه قاعدة يعرفها كل العسكريين والأكاديميين، ولم يعرف التاريخ العسكري قط نصراً تحقق من الجو فقط. الحرب تحتاج إذن إلى قوات برية تقاتل على الأرض، فتخيلوا ماذا كان البديل لو لا وجود الجيش الحر؛ إما التدخل البري بقوات أجنبية غربية -وهذا خيار مرفوض قطعاً-، أو بقوات برية عربية أو تركية -وهذا الخيار لا اعتراض عليه من حيث المبدأ، لكنه ليس خياراً مفضلاً وليس وارداً أصلاً في الظروف الراهنة-، أو سيكون البديل هو أسوأ الخيارات: تسلیح الثورة، ونشوء عشرات الجماعات المسلحة في مناطق سوريا المختلفة. وقد ناقشت سلبيات ومخاطر هذا الاتجاه في مقالات سابقة فلا حاجة لتكرار القول فيه.

(5) أخيراً: فإن الجيش الحر سوف يقود الثورة إلى النصر -بإذن الله-؛ لأنّه هو حجر الأساس في الحملة الدولية التي يجري ترتيبها لإسقاط النظام، وهذا موضوع مقالة قادمة مفصلة -إن شاء الله-.

المصدر: موقع الزلزال السوري

المصادر: